

(1)

في رحاب الإسراء والمعراج

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم : {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

وبعد :

فمما لا شك فيه أن رحلة الإسراء والمعراج رحلة ذات أسرار عظيمة ؛ فهي رحلة فريدة في تاريخ الإنسانية ، جاءت تكريمًا لخاتم الأنبياء والمرسلين ، وتسرية عنه (صلى الله عليه وسلم) بعد سنوات ذاق خلالها هو وأصحابه ألوانًا من الاضطهاد والأذى والتكذيب ، وبعد أن فقد في أيام معدودة من السنة العاشرة من البعثة عمه أبا طالب الذي كان سندًا له في حياته ، وزوجته العاقلة الحنون السيدة خديجة (رضي الله عنها) التي كانت حصنًا وملاذًا آمنًا يلجأ له عند شدته .

ولقد ازداد همُّ النبي (صلى الله عليه وسلم) بعد رحلة الطائف الحزينة التي كانت أشدَّ المواقف صعوبة في حياته الشريفة ، فبعد أن أصابه من أذى قومه وغيرهم ما أصابه ، خرج (صلى الله عليه وسلم) إلى الطائف لعله يجد عند أهلها النخوة أو النصرة ، فكانوا أشدَّ أذى وقسوة عليه (صلى الله عليه وسلم) من بني قومه ، ذلك أنهم سلطوا عليه عبيدهم وصبيانهم يرمونه بالحجارة حتى سال الدم من قدميه الشريفتين ، فتوجه (صلى الله عليه وسلم) وهو في طريق عودته إلى ربه بهذا الدعاء الحنون الذي يحمل كل معاني العبودية والانكسار لله (تعالى) وحده لا لأحد سواه ، قائلاً : (اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي ، وَقِلَّةَ حِيلَتِي ، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ! أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعِفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي ، إِلَيَّ مَنْ تَكَلَّنِي ؟ إِلَيَّ بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي ؟

(2)

أَمْ إِلَى عَدُوِّ مَلَكَتُهُ أَمْرِي ؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أَبَالِي ، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ  
أَوْسَعُ لِي ، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلِحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ ، أَوْ يَجِلَّ عَلَيَّ سُخْطُكَ ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى ،  
وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ .

ومن هنا ، ومن قلب كل هذه المحن كانت المنحة الربانية العظيمة ، رحلة  
الإسراء والمعراج التي أطلع الله (عز وجل) نبيه (صلى الله عليه وسلم) فيها على  
حقائق غيبية ، وأسرار كونية ، لم يطلع عليها ملك مقرب ولا نبي مرسل تكريماً له  
(صلى الله عليه وسلم) ، وتثبيتاً لقلبه ، ولكي يزداد إيماناً و يقيناً وثقةً في أنه في معية  
الله (عز وجل) وفي كفاله وعصمته ، والله در الإمام البوصيري حين قال :

سريت من حرم ليلاً إلى حرم \* \* كما سرى البدر في داج من الظلم  
وبت ترقى إلى أن نلت منزلة \* \* من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم  
وقدمتك جميع الأنبياء بها \* \* والرسل تقديم مخدم على خدم

إن معجزة الإسراء والمعراج من أجل المعجزات وأعظم الآيات التي أكرم  
بها الحق سبحانه وتعالى نبيه (صلى الله عليه وسلم) ، ونحن في رحاب هذه  
الذكرى العطرة فلنقف مع بعض الدروس والعبر المستفادة من هذا الحدث  
الجليل :

أن الأخذ بالأسباب لا يتنافى مع صدق التوكل على الله (عز وجل) ، فقد سخر الله  
تعالى لنبيه (صلى الله عليه وسلم) البراق ليكون وسيلة انتقاله في رحلته مع أن الله  
(عز وجل) كان قادراً على أن يسري بنبيه دون وسيلة ، وعلى الرغم من يقين النبي  
(صلى الله عليه وسلم) الكامل وصدق توكله على الله (عز وجل) إلا أنه عندما وصل  
إلى بيت المقدس ربط البراق الذي سخره الله تعالى له ، تعليماً للأمة بضرورة الأخذ

(3)

بالأسباب، فقال (صلى الله عليه وسلم): (..فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلَقَةِ الَّتِي يَرِبْتُ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ) ، يقول الإمام النووي : "وفي ربط البراق الأخذ بالاحتياط في الأمور ، وتعاطي الأسباب ، وأن ذلك لا يقدر في التوكل " .

فالمؤمن الحقيقي يعمل عمل رجل لا ينجيه إلا عمله ، ويتوكل على الله توكل رجل يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتبه الله (عز وجل) له ، وهذا الفهم المتوازن هو المقصود من قوله (صلى الله عليه وسلم) في جانب الأخذ بالأسباب: (إِنْ قَامَتْ عَلَيَّ أَحَدِكُمُ الْقِيَامَةُ وَفِي يَدِهِ فِئِيلَةٌ فَلْيَعْرِسْهَا) ، ومن قوله (صلى الله عليه وسلم) في جانب التوكل : (لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَعْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بَطَانًا) .

أخوة جميع الأنبياء والمرسلين ، فالأنبياء والمرسلون جميعاً أصحاب رسالة واحدة في الأصول والعقائد ، وإن اختلفت في الشريعة والمنهاج ، قال تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } ، وقال نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَاتٍ ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِيْنُهُمْ وَاحِدٌ) .

وكان سيدنا عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) يقول في شأن الوصايا العشر التي جاءت في قوله تعالى: { قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ\* وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ\* وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} : " هذه

(4)

آيات محكمات لم تنسخ في أي شريعة من الشرائع ، أو ملة من الملل ، وهي محرّمات على بني آدم جميعاً ، وهن أم الكتاب -أي أصله وأساسه - من عمل بهن دخل الجنة ، ومن تركهن دخل النار".

ولقد كان من الآيات الكبرى التي أكرم الله (عز وجل) بها نبيه (صلى الله عليه وسلم) أن جمع له الأنبياء والمرسلين في بيت المقدس ، وصلى بهم إماماً ، كما استقبلوه (صلى الله عليه وسلم) في السموات العلا قائلين : (مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ) ، وكان ذلك إيذاناً بانتقال الإمامة في الأرض إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وفي نفس الوقت تطبيقاً عملياً للعهد والميثاق الذي أخذه الله (سبحانه وتعالى) عليهم ، حيث يقول سبحانه: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} ، قال عليُّ بنُ أبي طالب ، وعبد الله بنُ عباس (رضي الله عنهما): "ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً (صلى الله عليه وسلم) وهو حيُّ ليؤمنن به ولينصرنّه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته، لئن بعث الله محمداً (صلى الله عليه وسلم) وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنّه" .

مكانة المسجد الأقصى إلى جانب المسجد الحرام : فقد انتهى إليه إسراء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ومنه بدأ معراجه إلى السموات العلى ، ثم إلى سدرة المنتهى ، كما أنه أولى القبلتين ، وثالث الحرمين ، وأحد المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال من أجل الصلاة وثوابها ، كما أنه ثاني مسجد بني على الأرض ، فعن أبي ذرٍّ (رضي الله عنه)، قال: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوَّلُ قَالَ: (الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ) قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: (الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى) قُلْتُ كَمْ كَانَ

(5)

بَيْنَهُمَا قَالَ : (أَرْبَعُونَ سَنَةً)، ثُمَّ أَيَّمَا أَدْرَكَتَكَ الصَّلَاةُ بَعْدُ فَصَلَّهُ فَإِنَّ الْفَضْلَ فِيهِ) ،  
وصلاة فيه خير من خمسمائة صلاة فيما سواه عدا المسجدين المسجد الحرام  
والمسجد النبوي ، حيث يقول النبي (صلى الله عليه وسلم): (فَضْلُ الصَّلَاةِ فِي  
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ عَلَى غَيْرِهِ مِائَةٌ أَلْفِ صَلَاةٍ ، وَفِي مَسْجِدِي أَلْفُ صَلَاةٍ ، وَفِي مَسْجِدِ  
بَيْتِ الْمُقَدَّسِ خَمْسُمِائَةِ صَلَاةٍ) ، فالمسجد الأقصى جزء لا يتجزأ من المقدرات  
الإسلامية، فهو ذو مكانة في قلوب أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وهو أمانة في  
أعناق المسلمين جميعاً ، فلا ينبغي أن نفرط فيها ، أو نتهاون في الحفاظ عليها ، كما  
يجب علينا أن نغرس في أبنائنا هذا المعنى ، حتى لا تنسى الأجيال القادمة مكانة  
وقدسية المسجد الأقصى لدى جميع المسلمين .

أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم .

\*\*\*

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن  
سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، اللهم صل وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه  
أجمعين .

إخوة الإسلام:

مع مطلع إبريل من كل عام يحتفي العالم كله بيوم اليتيم ، على أن تعاليم ديننا  
الإسلامي السمح قد سبقت كل المنظمات الإنسانية في العناية باليتيم والوفاء بحقه ،  
حيث يقول سبحانه: { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ  
فَاخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } ،  
والمتدبر في الآية الكريمة يرى أن التعبير القرآني قد جاء بكلمة (إصلاح) ليكون  
شاملاً لكل وجوه العناية والرعاية ، فالإصلاح اسم جامع لكل ما يحتاج إليه اليتيم ،  
فقد يحتاج إلى المال فيكون الإصلاح برّاً وعطاءً مادياً ، وربما يكون اليتيم غنياً

(6)

فيحتاج إلى التقويم والتربية، فيكون الإصلاح هنا رعاية وتربية ، وقد يحتاج إلى من يتاجر له في ماله أو من يقوم على شئون زراعته أو صناعته فيكون الإصلاح هو القيام بذلك ، وقد لا يحتاج إلى هذا ولا ذلك ، وإنما تكون حاجته إلى العطف والحنو والإحساس بمشاعر الأبوة فيكون الإصلاح بتوفير ذلك له، وقد يكون الإصلاح في تقويم زيغه واعوجاجه وتهذيب سلوكه وأخلاقه ، وبهذا المعنى الشامل للرعاية والكفالة جاءت النصوص القرآنية والنبوية تحثنا وتدعونا إلى إصلاح أحوال اليتامى ، ورعاية شئونهم .

وقال نبينا (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ أَحْسَنَ إِلَى يَتِيمَةٍ أَوْ يَتِيمٍ عِنْدَهُ كُنْتُ أَنَا وَهُوَ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ، وَقَرْنَ بَيْنَ أَصْبَعَيْهِ السَّبَابَةَ وَالْوُسْطَى)، وقال (صلى الله عليه وسلم): (خَيْرُ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ، وَشَرُّ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُسَاءُ إِلَيْهِ) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): (كَافِلُ الْيَتِيمِ - لَهُ أَوْ لِعَيْرِهِ - أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ ، وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى).

**اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ،  
أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب**